

# ايزاونا الشعبية الفلسطينية

## بقلم نمر سرحات

« السيجة » في النهار ويستمتع الى « شاعر » او « حكواتي » يقص اخبار عنزة بن شداد واخبار بني هلال في المساء . اما المرأة فنظف في البيت الذي لم يكن عمله يستغرق الا جزءا ضئيلا من وقتها بفضل البساطة المتناهية في العيشة . ولذلك كان على المرأة ان تصرف الفراغ في زخرفة ملابسها والتفكير في تصميها وتطويرها وجعلها تصفي عليها رونقا وبهاء وهي تنتظر زوجها الذي يقضي ساعات الطوال في المصافة خارج البيت .

ولريفية دور كبير ونصيب عظيم في تصميم الازياء وزخرفتها برسوم تلقائية وتقليدية . . وقد توارثت المرأة هذا الفن عن الامهات والجدات . والمعروف ان المرأة عموما اكثر انسيافا للدارج من الازياء من الرجال وذلك رغبة منها في التزين والتقرب ونيل الحظوة عند الرجل ، ومن جهة اخرى لدغدغة غرورها والظهور بين الاقران في مرتبة عالية . ولم تغفل الاغنية الشعبية هذه الظاهرة فنسمع الرجل يتباهى بسيفه والمرأة تتباهى « بشنبرها » :

يا بنت يا لسي بالقصر طيبي وشوفي فالتنا  
وانت غسواك شنبرك واحنا غوانا سيوفنا

وقد لاحظ « انانول فرانس » ان النساء لا يتزين لزوجهن بل ليظهروا امام اربابهن بالفنى والنراء فهن يتمسكن بهذا الاعتبار لمنافسة غيرهن في اكتساب الرجال . ويؤيد ذلك ان لكثير من القرويات ثوبا واحدا فحسب تستعمله للخروج ويكون عادة جميلا وجديدا ، بينما ترندي في البيت الاشياء البسيطة . . ولا شك انه بالرغم من اعتبارات العمل في البيت فان اعتبارات المظهر التجميل واردة في هذا المجال .

### الازياء والتقليد

ان تقليد الجديد والصدوف عن القديم في الازياء الشعبية امر متعارف عليه . ذلك لان الازياء علامة التجدد وامارة الخيوبة . . بواسطتها يجدد الريفي حياته وكأنه يقلد الطبيعة التي حوالبه وهي تتجدد في مطلع الفصل الدافئ .

واذا كان التجديد في الازياء الشعبية غير جذري فانه يحمل الرغبة في التخلص من المظاهر التي توحى بالانطلاق والوجود ، فالشاب القروي ترك جانباً العمه التي كانت زيا شعيبا عاما في مطلع هذا القرن واكنفى بالحطة والعقال . وهو ايضا استغنى عن الحزام الحريري الثقيل العريض واكنفى بحزام من الجلد او « الجنزير المطعم بالحرير » او حزام مشغول من الخرز . وتحول « المروكوب » الثقيل الى حذاء عادي بسيط . ولا شك ان هذه التجديدات كانت مجرد بدعة من بدع الشباب الا انها ما لبثت ان اصبحت تقليدا متعارفا عليه . . فالازياء في العادة تصدر عن حب الطرافة وايشار انجدة وهي نابعة من تصور الانسان لحياته ومفهومه عنها .

وبالاضافة لدور الشباب في التجديد فهناك دور الاغنياء في القرية الذين يبدون انزي او نوعا جديدا من القماش عنى الاقل . . ان ذلك ايجاء منهم لآخرين بعالوهم الاجتماعي ، حتى اذا ما صار انزي او نوع القماش مألوفا لدى عامة الناس في القرية تركوه وبدأوا بزى جديد . وبالرغم من الرغبة الملحة في التجديد في الازياء والبحث عن كل ما هو طريف وجميل فان المنسك بالزى ظاهرة عامة فسي الريف . ويقول المثل الشعبي « اللي بغير ليسه بغير جنسه » ولذلك يقاوم الريفيون ليس القبة او البنطلون القصير كما يقاومون لبس القميص الشفاف الذي يبرز ملامح جسد الانسان . ولا شك ان ذلك عائس

يمكن تناول موضوع الازياء الشعبية من حيث انها ظاهرة اجتماعية او من الناحية الوصفية البحتة . وفي الاسلوب الاول تدرس الملاحظات الاجتماعية ونستند بذلك الى ما نجد من اشارات حول ذلك في تراثنا الماضي والى ما نلاحظه من امور في حياتنا الحاضرة ، اما في الاسلوب الثاني فنحن نجمع بالصورة والكلمة كل ما يتعلق بموضوع الازياء جمعاء ارضيفيا ، وبالطبع يستدعي ذلك توفر امكانية مسح عام للازياء وتتبع ذلك عبر الماضي البعيد وهي عملية غير ذات قيمة اذا اقتصر على مسح حاضر الازياء بمعزل عن الماضي . كما انه من الضروري ان يرتبط ذلك بالتاريخ والدين والتقاليد الاجتماعية وملامح انجاة الشعبية بصورة عامة .

والواقع ان هذا المقال هو محاولة للمزاوجة بين دراسة الملاحظات الاجتماعية والاسهام بالنواحي الوصفية . ومن الضروري التركيز في الاهتمام على الناحيتين معا فالاستقراء مرتبط بتوفر نتائج المسح العام . . وكلما توفرت المعلومات المستفيضة عن الازياء الشعبية ، بما فسي ذلك جذورها التراثية ، فان الدراسة تصبح اغنى واكثر جدوى .

ان الازياء الشعبية التي لا تزال نشاهد اشكالها وانوانها المختلفة والجميلة في قرانا وباديتنا ما هي الا بقايا ازياء قديمة توارثها الناس جيلا عن جيل وطائفة عن طائفة . وما التباين الذي نلمحه على سطح هذه الازياء الا انعكاسات لمؤثرات دينية واجتماعية واقتصادية ومناخية . . وكذلك تاريخية . ان تتبع هذه المؤثرات فهو دراسة غنية ومفيدة تزخر بالفرائد الفنية ، المتنوعة . . وبكلمات اخرى فان ربط الازياء الشعبية بالطوائف والاقليات والهجرات والحروب واللامسح الدينية والظروف الاقتصادية والمناخية السى جانب التراث العربي التليد الذي يمثل المؤثر الرئيسي ، ان ذلك الربط فهو عمل تاريخي يحتاج من العناية والاهتمام والمتابعة انشيء الكثير .

والازياء الشعبية في غالبها فن نسوي ، فبينما نجد الريفي او البدوي يكتفي بالثوب او « الديماية » او « الكبر » مع بعض الملابس الداخلية البسيطة بالاضافة الى « الحطة والعقال » نجد ان ملابس النساء تزداد كثرة وتنوعا وتعقيدا . ويدخل في ملابس الريفيه امور كثيرة منها اللون والنظير وانقطع المتنوعة التي تخدم اغراضا شتى فهناك « القصيرة » و « العصية » و « اكمام المردن » الزاهية الالوان والمنفصلة عن الثوب الاصلي وكذلك « رقعة الصدر » التي قد يستغرق تطريزها اكثر من شهرين . . وهناك « المشطوة » « والمنتيان » وقطع « البرالين » (1) . ولا شك ان هذا التباين بين ملابس الرجل والمرأة في الريف يستدعي كثيرا من التامل ، فالمعروف ان الريفي وكذلك البدوي يصرف الاشهر الطوال من السنة فسي « عطالة » متواصلة والمعروف ان المرأة تشاركه اشهر العمل في الحصاد وغيره حتى اذا ما دنت الاشهر « الفارغة » انصرف الرجل الى « المصافة » يلعب

(1) تشبه القصيرة الجاكيت الا انها اقرب الى شكل «الجزاوية» الحديثة . اما اكمام المردن فهي قطع منفصلة تغطي المنطقة من الرسغ الى العضد الذي يسمح ثوب المردن بكشفه . والنبطوة هي غطاء الرأس المعروف في بيت لحم . ورقعة الصدر قطعة مطرزة تغطي الصدر . والنتيان يشبه القصيرة وكان معروفا في منطقة الروحة . والبرالين هي شكل متخلف من اشكال « الكاب » وتتألف من غطاء للنصف الاعلى من الجسد مع تنورة .

لكرهم تلاجانب الذين جثموا طويلا على صدر بندهم وكان مجرد رؤية القبيحة والبنطون الفصير كافية لاستدكار مساوى العهد الاستعماري والامه . وتتحكم العادة عند انريفيين في تحديد نوع اللباس وهم لا يتساهلون في الخروج عن العادات فيقاومون اولئك الذين يخرجون حاسري الرؤوس من الشباب وبمقدار اكبر يقاومون تقليد الفتيات للازياء الحديثة . ان في ذلك حفاظا غريزيا على السمات الاصلية للقرية ، وهو تعبير داخلي عن المنافسة ، فالقرويون ، وخاصة الكبار في السن منهم ، يخشون على نسانهم وبناتهم انقوايه من اولئك الشباب الذين يدون الانظار بازياتهم اتحديشه وظيفتهم في ارتدائها .

ولا يعني التقليد انه خطوة دائما للافضل . فهناك الملابس التقليدية التي ارضاهم انريفيون وظلوا يستعملونها حتى اصبح من الصعب الخروج عليها . وبحس الريفي ان كل العيون تلمسه اذا هو حاول ان يغير ولو تغييرا طفيفا في زيه .

وتلعب العوامل الدينية والاقتصادية دورا بارزا في تثبيت الملابس التقليدية ، فيعتبر انريفيون اندراوينى والمشايع ممتلين لتديسن . ولذلك فان كل من يود ربه ميول دينيه معينه ياخذ في تنفيذ اولئك المشايخ ورجال الدين بلبس العمامه والجبه . وتندك فان الدين الاسلامي يحرم على الرجال لبس الحرير والذهب . وفي ذلك مظهر من مظاهر الحماط على طبيعة الازياء واهو من زاوية معينة . ومثل ذلك دور العوامل الاقتصادية ، فالقني يلبس انصوف وانحرير (( والعفانال المرغ )) و (( حطة الحرير )) المصبة ، وتلبس امرأه المخمل والمقصب من الحرير في حين يكتفي انفيير (( بالديمايه )) البسيطة المجدلاوية والحطة الخفيفه ، وكذلك يلبس ايا من الاحذية . ويستمر التقليد سائدا عند كل فئة من الناس لدرجة يصعب فيها انزي تغييرا عن الفئة التي ينسب اليها الانسان في المجتمع .

#### وظيفة الازياء

من الضروري ان نستفريء الدور الذي تقوم به الازياء ، وفديما ادرك كونفوشوس ان اللباس على انفس والاحلاق . وحاول كمال اناورك بغير عقلية الشعب التركي وطريقة تفكيره عن طريق تغيير الازياء الشعبية .

وبدو ان اكشاف الازياء فد تم في العصر الباليوليتيكي . وربما مضغ اسنان هيدلبرج الجلد ليحمله ملائما للباس . الا انه مما لا شك فيه ان الانسان اكتشف الملابس واستعملها نوافيه جسده من مؤنرات الطبيعة الخلفة .

ويقول الاثروبولوجيون ان اصل استعمال الازياء نتج عن الخجل من ظهور الفورة وهذا في واقعه منسجم مع التبرير الديني في هذا المجال وربما كان استعمال الملابس عند الانسان الاول وسيلة لحمسلس اسلحه بدلا من ان يحمها بيده . ويبدو ان ربط الاسلحة على الجسد كانت الخطوة الاولى في اكتشاف الملابس (1) وما من شك ان غرور الانسان ورغبته في ان يكون متميزا عن الحيوان دفعه لارتداء الملابس ووضع الريش فيها . . ذلك الحق انذي لم يكن يحصل عليه الا بعد ان يحارب من أجله .

واذا عدنا لآياتنا الشعبية وجدنا التشابه الكبير بين ((الديمايه)) و (( انوب )) وهما اللباسان الرئيسيان عند الرجل والمرأة . ولا شك ان الرجل والمرأة كانا يرتديان نفس الثوب البرميلي الشكل في الماضي المسجق ثم قام الرجل بتخريف شكل (( ثوبه )) فشفه من الامام وشده الى جسده بالحزام . ومما يذكر في مجال الحديث عن تشابه ازياء الرجل والمرأة وان الثوب كان الوحدة الاصلية ان تذكر انه في عهد المجاعات في العصر التركي كان الناس يرتدون (( وجه الفرشة )) بعد ان يتقبوه من الاعلى فيخدم كتوب لكل من الرجل والمرأة .

واستمر الرجل يميز بينه وبين المرأة فاستعمل العقال على (( الحطة )) ليميز عن المرأة التي كانت تلبس نفس الحطة احيانا (حطة الحرير ذات الاهداب) . ومما يؤكد ذلك ان الرجل كان يحرم

على نفسه لبس العقال حتى يثار لنفسه وكذلك فان القائل يدخل الى بيت الفتول يوم (( الطيبة )) أي الصلح وهو يضع العقال في رقبته وفي ذلك كناية عن ان الرجل الذي لم يثار لنفسه مجرد من الرجولة حتى يستردها بالثار وعندها يحق له ان يلبس العقال . وفي الحالة الثانية يرمز خلع العقال الى الاستكانة والخضوع .

ومن أبرز وظائف الازياء اظهار الجمال والايحاء بالمحسن فهبي (( لغة يعتمد عليها الناس في التعبير ولها اشاراتها )) (1) وان كانت النساء اكثر اهتماما بالازياء فان الرجل يقع تحت تأثيرها رغبة في التزين ايضا والتفرب من الجنس الاخر ، فنجده يردي (( ديمايسه الروزة )) و (( الطافية اندرزية )) المطرزة ذات الشرايه المتنوعة الالوان ويخار (( السوال )) الابيض (( والحطة المخرمسة )) او (( السماغ ذا الاهداب )) انطنية ويتمنطق بحزام من (( الجنزير المسفول بالحرير )) او حزام مسفول بالخرز . وتلبس المرأة الثياب من الحرير وتضع على جبينها عصائب من المناديل المزركسة وشده وسفها بشال حريري . حتى البدويه ترتدي اجمل الفسايين الملونة والزاهيه تحت الثوب الاسود الواسع (( الشرش )) . وبذلك فاننا نوسل باللباس لتحسن شكلنا وتتركش وذلك يدغدغ غرورنا ويزيد نفعا بانفسنا )) (2) .

وتستعمل الفلاحة الزنار الرفيع ، بخلاف البدويه ، لتبرز الخصر التحيل والارداق ولا سيما الجزء العلوي منها . ويلبسي الفلاحة (( الحزفة )) الى الوراء لتتيح لفتحة العنق ان تظهر . ويدخل في لباس الفلاحة طيات برز انديين ونضيق الثوب حول الوركين . . ويبرز صفائر اشعر على الظهر متصله (( بالقراميل )) (3) بنوح على العجزين كلما سارت ( وسط شمال فلسطين ) وعن ذلك نقول الاغنية الشعبية :

جفرة وياها لربيع بالسهل بنحوي (4)  
وبراس فرمولها وتلفست روحسي

وحرص المرأة على ان تكون كل قطعة من ثيابها جذابة للجنس الاخر (5) مما يدل على وظيفة الازياء في تفرب احد الجنسين من الاخر . الا ان ذلك لا بد وان يعطي انطباعات معينة عن المرأة المتبرجة ، ففي اليونان القديمة لم تكن المرأة التي تحترم نفسها تلبس اللباس الجذابه او تهتم بتغيير زياها واتبحت عن كل ما هو ظريف وملفت للنظر انما كانت العاهرات هن اللواتي يفعلن ذلك (6) . واذا ارادت بدويه من بنويات أقصى جنوب فلسطين ان تشتم صاحبها فأنها تقول لهيا : (( رينك تنكحلي ولبسي لباس )) (7) . فالمرأة النسبي تنكحل وتلبس (( اللباس )) أي السروال تعتبر عاهرة .

وبصفة عامة فان ملابس المرأة ، على التحديد ، يمكن ان تكون صورة صادقة لوجهة نظر المجتمع في المرأة ونصوره لدورها ، والا فلماذا وجدنا ان نساء (( بني صعب )) (8) و (( الشعراوية )) (9) و (( الروحة )) (10) والكرمل والجليل ترتدي ازياء زاهية الالوان وتبرز محاسن الجسد وملامحه في حين ترتدي نساء منطقة انقور والخليل ويسدو الجنوب والبادية ومعظم قرى الضفة الشرقية اثوب الاسود الكبير الواسع (( الشرش )) فوق الملابس الاخرى ؟ ولماذا نجد زي الفتاة المجدلاوية في الجنوب يسمح بكشف العنق وجزء من الصدر في حين نجد الازياء في

Encyclopeda Britanica of 676 (1)

- الفيلسوف الالماني شينغلر .  
(2) الدكتور عبد الكريم اليافي ، مجلة المعرفة العدد 25 لعام 1964  
(3) القراميل خيوط غليظة نوعا ما . . تنهي بمجموعة من القماعات من نفس الخيوط بأسفل الظفائر وتترك القماعات الى اسفل .  
(4) كناية عن السير المصحوب بالفتاء  
(5) Jeim Flugel apshycologist of dress  
Encyclopedia Britannica.

Encyclopedia Britannica (6)

- (7) ليلك تنكحلي وترتدين سروالا (8) جنوبي طولكرم  
(9) شمالي طولكرم (10) بين شمالي طولكرم وجنوبي حيفا .

مناطق أخرى تسمى كل شيء في جسد المرأة عدا الوجه والكفين والقدمين كما ينص الدين الإسلامي؟ أليس لنا اتحق فسي تصور اثار بصمات الصليبيين ومن قبلهم الرومان واليونان على ازيائنا الشعبية؟ وان نظرة المجتمع للمرأة ظلت متأثرة بأولئك الاقوام وبالتالي تركت اثرها على ازياءنا؟ ومن الامثلة على وجهة نظر المجتمع الريفي، نحو المرأة والتي تبدو واضحة من خلال ازياء الشعبية سخط الناس على المرأة التي تبدو مفرية وجذابة بارتدائها ملابس خاصة تلفت النظر، وسخطهم هذا صادر عن خشيتهم من انقواية التي قد يسببها اهتمام الشباب بالفتاة التي ترتدي ازياء جذابة .

ووجهة النظر هذه بالطبع تختلف عن وجهة نظر مجتمع آخر يصنبر المرأة « الزهرة الحلوة التي يجب ان يشمها كل ذي ذوق » .

ان الزي الشعبي يمكن ان ينظر اليه على انه لفة صامنة يفهم منها معان كثيرة منها التعبير عن مكانة الذي يرتديه وفئة المجتمع التي ينتمي اليها ، فتوب انصوفي وجبة التشيخ يقصد بهما انزيي بسزي الرسول والظهور بمظهر الانسان الخاضع لمشيئة آله . ويوحى منظر الرجل الذي يلبس « الفيصلية » - زي الرأس المعروف - ان اللابس رجل مسن ومحافظ بينما يوحي منظر لابس القبعة بأنه انسان معجب بالفريبيين . اما انعباء وانجاكيت اندي يغطي ثشي الديمة فهما مظهر الوجة وانزعامة . وتجد في القرية ان معظم الفلاحين يلبسون ديميات « الجدلاوي » البسيطة وليس القليل منهم « السالخي » و « البهنسي » (1) وهناك شخص أو اثنان فحسب ممن يرتدون ديماية الصوف والعجرات التي تربط بالسرول الابيض بمطاز خاص .

وان ازياء لتعبر اصدق تعبير عن الانتماء الطبقي لصاحبها ، وفي العادة ان يحاول الناس العاديون ان يقلدوا الاثرياء والوجهاء بازيائهم في محاولة للظهور بمظهر الثراء والوجهة والتطلع الى انتماء طبقي اعلى .

و « لفة » ازياء لفة واضحة يفهمها الجميع . انك لتري الشاب القروي « المشيب » يرتدي حطة مخرمة وعقالا من المرعز وقد تسرك « قذلة » من شعره بارزة وبدا سن الذهب على طرف فمه وحمل عصا يابح بها وهو يسير في الحارة . . وكانك تقرأ في ملامح هذا الشاب رغبته في التديل على رجولته وشبابه وحرصه على اغراء «عذارى» القرية ولو من بعيد وهو الانسان الذي لا تتاح له الفرصة الكافية للاحتكاك بالفتاة والتحدث اليها واتعبير عن رغباته نحوها .

وتحس بلفة ازياء في المناسبات ، فالملابس الزاهية الالوان وفلائد الذهب والاساور تغطي الثياب الثقلة « بانتننة » و«الكشاكشي» (2) . في مناسبات الافراح . وكفهر الجو بالثياب السوداء التي ترتديها النسوة في فترات الحداد . اما ليس الثياب مقلوبة عند الاستسقاء وطلب الفيث فهي افضل تعبير عن الرغبة في ان يغير الله الحال ويبدله . وان اختيار الفتيات ثملابس انزاهية الالوان وتركهن الملابس الداكنة للعجائز لهو تعبير عن تصور الناس للحياة ونظرتهم لها . وتلعب العوامل الدينية والاقتصادية دورا بارزا في وظيفة ازياء

فترى ازياء بشكل عام تفرص على ستر العورة بشكل خاص ومعظم اطراف الجسد عند المرأة . وقد تم ذلك بلا شك بمنشأ اخلاقي او ديني دافعه بالتاكيد رغبة الرجل في الاستحواذ على المرأة ويفرض اقتصادي يعود لذلك اليوم الذي جر فيه الانسان الاول المرأة من شعر رأسها الى الكهف وحجزها فيه لتنجب له الاطفال وتساعد في قضاء بعض حاجاته . واذا اعمنت النظر في ملابس الريفي تجد الحرص على كونها متينة ومن النوع الذي يحتمل ظروف العمل كما انها بوجه عام تخدم اغراضا مادية ، فالريفي يتمنطق بحزام الجلد ليشد خصره وليحتمل هذا الحزام ادواته الضرورية من « صفن » و « زناد » و « صوان » و « كيس التبخ » وغير ذلك .

### الازياء من الناحية الوصفية

ستظل دراسة ازياء الشعبية من الناحية الوصفية ناقصة

ومبتورة حتى تتم عملية المسح الفولكلوري العام للبلاد . وعندما تتوفر تلك العملية يكون لدى الباحث حشد عظيم من المعلومات بالصورة والكلمة ويدهش اتباحث لتنوع ازياء الغريب ، ويعود ذلك لعوامل كثيرة منها كثرة الاقليات الدينية وتنوع العادات والاختلاف الكبير في انماط الحياة البشرية . ويرى الباحث ملابس زاهية في الناصرة والى جوارها ملابس بدوية سوداء . وفي الوسط يسرى الباحث الفسائين الطويلة الواسعة المشفولة بالطريرز والكشاكش ، وفي الجنوب نرى نماذج مختلفة من الملابس اسوداء ابودية والحضرية منها . وفي الضفة انشرفية يميل ازياء الى الوحدة فزياء الرجال : اندامر والعباءة والفردة والسماع وازياء النساء تتلخص في « الدلق » الذي يلبس فوق ملابس متنوعة لا يبرز منها شيء . وان ميل ازياء هنا الى الوحدة راجع لطبيعة الحياة البدوية . . هذا طبعا باستثناء ازياء الجديدة المستوردة .

ولم تكن ازيائنا بمعزل عن ازياء العربية والازياء الاخرى ، فالعروف ان بلادنا كانت وما زالت متقن شعوب ثلاث قارات . وليس من المستبعد ان تكون « الشطوة » (3) من أصل صليبي ، وقد وجدت في صورة قديمة لبنانية تعود للقرن التاسع عشر . وعرف « الشروال » في البلاطات الشرقية وخاصة فارس . كما ان الطربوش عرف في بلاد العثمانيين والفرس . ويشبه زي الرييات في المثلث وجنوبي الكرم الزي اليوناني . وغني عن البيان اثر انزي آوروبسي الحديث في ازيائنا بوجه عام .

واذا اعنا النظر في صور مجموعة ازياء العالمية التي اوردها الانسيكلوبيديا البريطانية (4) ترى شبيها بين الثوب الكريسي القديم وثوب الريفة الفلسطينية مما يمكن ان يعزى لفترة التقاء الحضارة الهلينية بحضارة بلاد اشام . كما ان تصديري المصري القديم يشبه الى حد ما الصديري المعروف في منطقة شمال فلسطين ويرتديه الرجال فوق « الشروال » . ولا يسع المتأمل الا ان يربط بين « التوجا » الرومانية ، وهي زي السنانور الروماني اديدز ، وبين العباءة العربية وهي زي المشايخ والامراء .

وقد كنت اشرت في دراسات سابقة عن الفن الشعبي الفلسطيني في مجال الاغنية الشعبية عن الحد الفاصل بين محلية تلك الاغنية وجنورها انرفية . ورغم حساسية الموضوع وحاجته للماسة للشواهد المتعددة - بسبب عدم توفر امكانيات المسح الفولكلوري حتى الآن - فانه يمكن ان نتلمس الملامح العربية الواضحة في ازيائنا الشعبية . لقد اعتادت المرأة العربية في الجاهلية والاسلام ان ترتدي الثوب الذي لا يظهر غير « وجهها وكفيها وقدميها » . وقد توفرت هذه الصبغة في ثوب الريفة الفلسطينية سواء كانت من نساء بسدو الجنوب أو نساء رام الله والقدس واريحا - ولهن زي موحسد - او نساء الشعراوية والروحة (5) او نساء عكا والناصره ، ولم يشذ عن هذه القاعدة اي نمط من ثياب النساء . ورغم اختلاف المظاهر البسيطة فان تلك الثياب النسوية تشبه « اشوالا مفتوحا من الاسفل ته فتحتان علويتان للاذرع . . ومصنوع من وبر الجمال او الصوف ، وهو « الابسا » Aba المذكور في الكتب المقدسة كزي للانبياء » (6) انه الزي الذي حافظت

### - التمهة على الصفحة ٤٦ -

- (1) انواع من اللديما
- (2) زخرفة على شكل اشرفة تضاف للثوب .
- (3) غطاء رأس المرأة المعروف في بيت لحم . . وهو على شكل طربوش مخروطي .
- (4) Volume طبعة ١٩٦٥ .
- (5) الشعراوية ( منطقة طولكرم والروحا بين شمالي الشعراوية وحيفا .
- (6) الانسيكلوبيديا البريطانية ، ج٧ ، ص ٦٧٩ طبعة ١٩٦٥ .

## ازياؤنا الشعبية الفلسطينية

- تنمة المنشور على الصفحة ٣١ -

عليه المرأة العربية طوال اكثر من ثلاثين قرنا .

وفد طرات مؤثرات عربية ساعدت على تطعيم الازياء الشعبية الفلسطينية وخاصة في المناطق الواقعة في اطراف البلاد ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ان زي اهل المجدل ( غزة ) متأثر بالزي الشعبي المصري . فهم يرتدون « العجة » والشال الذي يلف حول الرأس ويسمى « اللاسة » والثوب الذي يصنع من الديما المخططة وله اكمام واسعة وفتحة مستديرة على الصدر . ويعتبرون بانحزام العريض « اللوندي » والذي ذكره المفتي الشعبي بقوله :

يا بنت انسا ضيف ابوك يا ابو الحزام اللوندي

يا ميت هلا بضيوف ابوياسا لو ان وراه ميت افندي

ومن امثلة التشابه بين الزي الفلسطيني والازياء الشعبية افريقية « الشروال والمديري » وهما معروفان في شمال فلسطين وسوريا ولبنان نازياء رجالية . وهناك شبه كبير بين زي المرأة في افنور وفي سائر المناطق البدوية العربية . وليس من المستبعد ان تكون هذه الازياء ازياء شعبية عربية اصيلة عرفت في تلك الجهات من الوطن العربي قبل ان يفرس الاستعمار فيه خطوط الحدود ، اذ ليس من الضروري ان نفترض ان قفرا عربيا معيناً قد نقل تأثيره على القفرا الاخر .

واذا استعرضنا مناطق الازياء الفولكلورية لاحظنا ان منطقة غير محددة ومثبوتة في كل مكان من فلسطين وهي منطقة الازياء البدوية التي نجدها في الجنوب وفي الساحل الاوسط والقفور وحتى في الجليل . وزي المرأة البدوية هو « الصاية » او الثوب الاسود الطويل الذي « يغطي كل جسد المرأة ما عدا وجهها وكفيها وفديمها » . ومن هذا النوع الثوب الذي له « عب » اذ تشد المرأة خصرها بحزام تسمى ترفع الثوب فوق الحزام ليتدلى « العب » . وربما نسا العب بفرص اقتصادية لتضع المرأة فيه ما تحمله ، وربما كان منشؤه اخلاقيا اذ يتهدل الثوب على جسد المرأة فيخفي كل معالم جسدها وتبدو ملفوفة متمعة .

واذا كان البدوي يلبس العباءة في الاقاليم الدافئة ، فهو يستعمل الفرو في فصول البرد . والفروة صناعة شعبية نعد على العائمة المحلية المتوفرة لدى البدوي وهي جنود الماشية . والفروة لباس خارجي يشبه اقبالو الا انه واسع وله اكمام طويلة فضفاضة . ومن انواع الفراء ما يلف بالقماش من الخارج حتى لا يبرز الجلد . وتظهر في بعض الانواع بقع مطرزة بفرص زخرفي بحت . وليست الفروة هي المثال الوحيد على استفادة البدوي من منتجات بيئته البسيطة ، فهناك « الوطا » او « الركوب » اي الحذاء الذي يصنعه من جند النجل ويصنع له « مسكة » متصلة بالكعب . ومن الطريف ان نذكر ان البدو والريفين في مستهل هذا القرن كانوا يعتبرون لبس الحذاء عملا تقدما اكثر من اللازم . وكانت المرأة التي تلبس الحذاء تعتبر خارجة على التقاليد .

وترتدي المرأة في منطقة الانتقال بين المنطقة البدوية والمناطق المتحضرة « جوخة » فوق الثوب الاسود ، وهي جاكيت نسائي من الصوف . ويطرز الثوب على جوانبه وعلى « الياقة » والصدر .

وليس البدوي ثوبا ابيض اللون بخلاف زوجته التي تصر على اللون الاسود . وقد تأخر ظهور « كنياز » الرجل او الدبماية حتى العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن ، وقد ظهر اول ما ظهر لدى الوجهاء والمشايخ بحكم سفرهم واخلاقهم بالآخرين . وقد بدأت الدبميات اولاً بالصوف ثم ظهر القماش الملصم الشامي والمجدلاوي ( نسبة لمجدل غزة ) .

وقد كان الثوب عزيزاً ونداراً في اواخر القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن ، فاذا غسل البدوي ثوبه لبس ثوب امرأته ، واذا غسلت المرأة ثوبها لبست ثوب زوجها ، ويعود ذلك لحدة سوء الاوضاع الاقتصادية في فترة ما قبل الحرب الاولى .

ولم تكن الملابس الداخلية معروفة على الاطلاق لدى المرأة والرجل ، وحتى الاربعينات كانت هناك نسبة كبيرة من البدويات لا تعرف الملابس الداخلية . وقد عرف نوع من الملابس الداخلية في بعض الاوساط الثرية وهو « التنورة » وهي ليست التنورة التي تعرفها الفتاة الحديثة بل هي قميص داخلي يصل للركبة ونرديه البدوية كقطعة وحيدة تحت الثوب . وكانت البدوية اذا خلعت الثوب في البيت ظلت ترتدي التنورة كوسيلة من وسائل الاغراء .

وكان مشايخ البدو يتحزمون بالحزام السليمي ( نسبة للسلطان سليم ) وهو يتألف من فماش غليظ يلف عدة لفات على الخصر ويضع فيه البدوي « علبة الدخان » و « الزناد » والنقود . وكلما نزل الحزام الى ما تحت الخصر وبدا « الكرش » مندلفا كلما كان البدوي اكثر وجاهة . ويتحزم البدوي ايضا بحزام من الجلد عريض ليكون « العب » . ويندر الناس على اساع هذا العب لدرجة ان الراعي يضع فيه وليد نعخته اذا ولدت في الخلاء .

ويرتدي بدو وسط وشمال فلسطين الحطة والعمال بينما يرتدي بدو الجنوب « الكفية » وهي مندبل طويل من « الاطلس » او الفز تلف على طربوش مغربي ( غير المدني ) ولا تخلع عن الرأس لسدة طويلة . وقد تكون كبيرة لدرجة انهم يتندرون عليها بوصفها بعجل السيارة . ولا يلبس الولد البدوي هذه الكفية بل يرتدي طافية مصنوعة من مادة الطربوش المغربي . وعندما يتيسر الولد هذه الطافية تأتي النساء مهنته امه فإلات : « ميروك طرابضة ابنك ، وعقبال يوم تتليه » اي نلبسيه الكفية .

وقد رأى زعماء الثورة الفلسطينية الكبرى لعام ١٩٣٦ نوحيد لباس الرأس فافترحو انكوفية والعقال كزي موحد للفلسطينيين ، واخذت كفية بدو اتجنوب تخنفي كما اخذ الطربوش التركي في الاختفاء ايضا .

ونظي البدوية رأسها « بالخرقة » وتحتها طافية متصلة بالعنق بخيط يسمى « الزناق » . ونشت على الوفاة « هذه طوق من الخرز فاصابع فضة مثل « خمسة اليد » وعلى جانبي الرأس وابتداء مسن مفرك الشعر تثبت قطع فضية تسمى « الوزريات » .

وكان بدو الجنوب اليمينيون يشترطون على العروس عند زفافها ان تضع على وجهها مندبلا احمر وهو شعار اليمينيين المتوارث ، كما يشترط بدو اتجنوب القيسيين ان تضع العروس على وجهها مندبلا ابيض وهو شعار القيسيين المتوارث .

وعلى الرغم من نظرة الازدراء التي يبديها الكثيرون نحو الازياء البدوية فانها تجمع بين الاصالة والحشمة وكذلك فهي ازياء ثمينة ومصنوعة من مواد تكلف الكثير . وسنرى من استعراض مناطق الازياء الشعبية الفلسطينية الاخرى ان كل الازياء الشعبية الفلسطينية تتفق مع الازياء البدوية في مبدأ واحد عام وهو ان ثياب المرأة يجب ان تستر الجسد بأكمله ما عدا الوجه والكفين والقدمين ، وهذا يتفق مع الدين والتراث العربي تمام الاتفاق ، مما يدل على اصالة الزي الشعبي الفلسطيني رغم ضخامة المؤثرات التي طرات على هذه المنطقة من الوطن العربي .

وتعتبر ازياء منطقة القدس مرحلة جريئة في تطور ازياء المنطقة البدوية . وتشابه ازياء المنطقتين في خطوطهما العامة ، الا ان هناك لمسات جمالية كثيرة في ازياء منطقة القدس .

ويتفق الزيان في ان ثوب المرأة يجب ان يستر كل شيء ما عدا الوجه والكفين والقدمين ، الا ان البدوية تلبس اثوب الاسود طوال العام بينما ترتدي المرأة في منطقة القدس الثوب « البيسج » الخفيف في الصيف وهو ثوب يتفق مع الثوب الشتوي في تفريزه ونفضيله .

تفرد الوسائل الحديثة كل مكان ، فاستعملت العجايز الحناء لاختفاء الشيب كما استعملته الشباب لتلوين راحة اليد والسيقان والاذرع وخاصة في مناسبات الاعراس والاعياد . وكانت هناك « الازلينة » « والكحل » والند . وكانت الريفية تصرف اسبوعا من الزمن لصنع « بيت المكحلة » من نسيج من الخيطان والخرز مثقل بالشرابات حتى اذا ما علقته على واجهة البيت بدأ تحفة زخرفية رائعة . وقد عرفت القرية مهنة الماشطة وهي المرأة المتخصصة في تزيين العرائس وازالة الشعر الزائد .

وتتباهى الريفية كثيرا بالحلي ، فهي تضع « الكردان » على صدرها تزهر به ، والكردان خيط او سلسلة تضم الليرات الذهبية التي تلمع على صدر المرأة كتعبير عن الاناقة والثراء . وكان الريفية تقول انها لا تملك حاجات يومها الضرورية فحسب بسمل تملك ايضا الفانص الذي ترصفه ليرات ذهبية على صدرها . وهناك الحلق والاساور . وفي الماضي كانت الريفية تضع الحجول في فديها لتصدر طيننا محببا اذا مشيت يفت انتباه « شباب الحارة » .

ولم تكن الريفية بزخرفة ثيابها بل لجأت لزخرفة بشرتها وخاصة ظاهر الكفين والوجه والذراع . لقد عمدت الريفية الى الوشم ترسم به وحدات زخرفية يقصد منها اضعاف مسحة جمالية على الوجه او جاذبية جنسية كما هو الحال في رسم « الوسادة » على الذراع اليمنى للمرأة والتي تسمى « وسادة ابن العم » . والوشم ظاهرة قوية استطاعت ان تصمد وتحقق وجودها في الحياة الشعبية فيما قبل الخمسينات من هذا القرن . وتشم المرأة عادة جبينها وخبها وذقنها ، وترسم خطا بالوشم يصل بين منتصف الشفة السفلى ونهاية الذقن . ويعرف هذا الخط بـ « السائلة » وهي زخرفة تحل مضامين جنسية واضحة .

وساهمت العناية بالشعر في اضعاف لمسات جمالية على الازياء . فالريفي رجل يتباهى بشاربه ويعتبره دليلا على الرجولة فيقال ان فلانا رجل شجاع يقف على شاربه الصقر . ويبدو ابطال القمص الشعبي رجالا استطالت شواربهم وظهرت في وسط الوجه تزيد من ملامح قسوته وجراته ، الا ان العرب في السابق جروا من جهة هدام الوجه على اخفاء الشوارب واطالة اللحي التي كانت تعطيهم هيبة وجلالا ووقارا . وكان ذلك من باب التشبه بالرسول الكريم . واعتنت الريفية باطالة شعر الرأس وتجديله في جدائل طويلة تصل الى اسفل الظهر .

### مصير الزي الشعبي

هناك من يتساءل : لماذا لا تتبنى الزي الشعبي ونطرح الزي الاوروبي ؟ ويضرب من يتحمسون للزي الشعبي امثلة على الشعوب

وكما ان المرأة البدوية ترتدي « جوخة » فوق ثوبها الاسود فان المرأة في منطقة القدس ترتدي ما يسمى « التقصيرة » وهي شبه جاكيت من المخمل الاسود المطرز بالنصب . ورغم زوال هذا النوع من الزي فانه ما زال يصنع ليلبس في المناسبات او ليرسل الى المهجر كمظهر اصيل من مظاهر الزي الوطني .

ويمتاز غطاء الرأس في منطقة القدس بالنسبة للمرأة باناقته وجماله . وتطرز « الوفاة » بقطع ذهبية وفضية . وبدلا من « الخرقة » التي تلبسها البدوية فوق الوفاة فان المرأة في منطقة القدس ترتدي « الحرام » ذا الاهداب ويسمى بالشال وذلك في فصل الشتاء . وفي الصيف ترتدي خرقة انيقة مخرمة ويضاء لتناسب الفستان الصيفي الجميل . وفي بيت لحم بالذات فترتدي المرأة على رأسها « الشطوة » وهي « طنطور » يشبه الطربوش توضع فوقه الخرقة .

ولا يختلف كثيرا زي الرجال في منطقة القدس عن زي الرجل البدوي الا في لمسات التطوير البسيطة التي تتميز بالجمال والاناقة .

ولا يشذ زي المرأة في مناطق بني صعب والشراوية والروحة (من جنوبي طولكرم الى جنوبي حيفا) عن سيدة الثوب الذي يستتر جسم المرأة « ما عدا وجهها وكفيها وقدميها » . وهنا يخفي ثوب الحبر الاسود المطرز تماما ليحل محله نوعان من الفساتين النسائية : الاول يسمى « بالردن » لانه يمتاز « بالردان » او الكم تطويل ذي الفتحة الواسعة والذي يربط عند ظهر المرأة وهو من قماش ابيض يطرز عليه . والثاني : الفستان البرميلي الشكل المصنوع من قماش مختلف الالوان ويشغل بالنتنة والتكاشك ووسائل الزخرفة الاخرى . وكلما اتجهنا للشمال نلاحظ ان الفستان يمتاز بألوانه الاخاذاة وزخرفته الواضحة والتصافه بالجسد وابرازه مفاتنه . ونحس هنا بالذوق الرائع في تفصيل الفساتين فهناك فتحة تبدأ من العنق حتى السرة وتطلق هذه الفتحة جزئيا بالازرار . وتبدو هذه الفتحة شبه بيضاوية عند مستوى التهدين ويبدو انه تدهان تحت القميص الداخلي على استدارتها الطبيعية .

وتشد المرأة « الشمالية » خصرها فوق الفستان الايق الزاهي الالوان بشال من الحرير الصافي تبدو عقدته على أحد الجانبين في اناقة محببة .

وتكاد العباء هنا تخفي في زي الرجال . ويرتدي الشباب الكوفية البيضاء الرقيقة « الموسلين » وتحتها الطاقية المطرزة . وقد يكتفي البعض في مناطق الساحل والجليس بلبس الشروال الاسود الواسع وفوقه القميص والجاكيت احيانا ولا يضعون على الرأس سوى الطاقية المطرزة ذات الشراية المختلفة الالوان .

وعلى اية حال فان مقالا كهذا لا يمكن ان يلم بدقائق الزي الشعبي الفلسطيني ، وفوق ذلك فالامر مرتبط بمزيد من السج والتقصي والدراسة مما يعجز عن القيام به شخص بمفرده وبامكانياته العادية .

\*\*\*

ولا تقتصر دراسة الزي على اللباس بل تتعداه الى الحليمة وتصفيف الشعر وتسريحه كذلك زخرفة البشرة الانسانية ومما شابه ذلك من ضروب الاناقة وفنونها .

ويستغرق تطريز ثوب المرأة في منطقة القدس اكثر من شهر ، ويتركز التطريز على الصدر واطراف الثوب . وتطرز ملابس المرأة « الشمالية » بالحرير والخرز والبرق ( صفائح صغيرة ومستديرة ) لامعة من المعدن تشبه فلوس السمك . والفاية من التطريز هي غاية جمالية زخرفية يقصد بها اظهار الالوان المختلفة بالدرجة الاولى . ولا يخلو ذلك من اعتبارات الفنى والوجاهة والجاذبية .

وترسم الريفيات على الملابس رسوما من الذاكرة في اغلب الاحيان وليس عن نماذج امامهن للنقل عنهن . وتعرف الريفيات الرسوم باسمائها مثل : مفتاح الخليل ، قطوف العنب ، شجرات النخيل ، البط ، نجمة بيت لحم .. وهكذا .

وقد عرفت ريفيات بلادنا وسائل بسيطة وبدائية للتجميل قبل ان

صدر حديثا :

# الزيب لا يكون

قصص

بقلم :

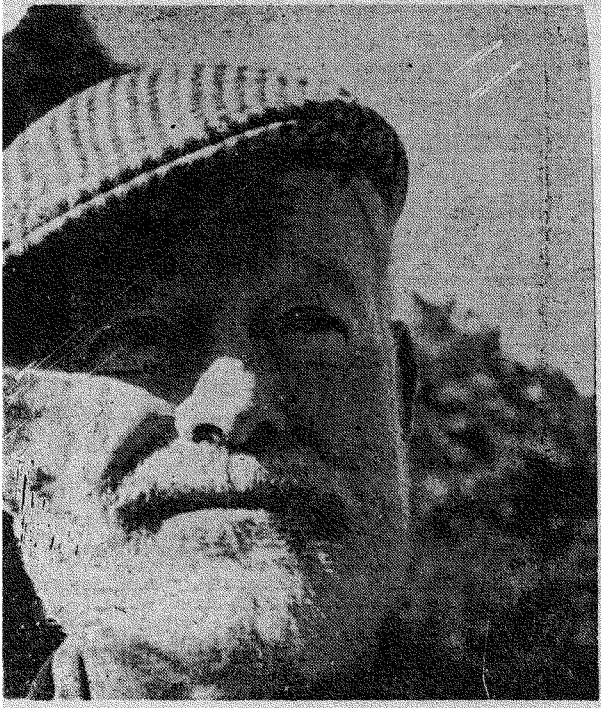
عائده مطرجمي ادريس

منشورات دار الاداب

٢٠٠ ق.ل

صدر حديثاً

## بابا همنفواي



بقلم ا. هوتشن  
ترجمة ماهر البطوطي

هوتشن صحفي شاب اقبل على همنفواي يطلب منه حديثاً ادبياً وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقاً يلزمه كظله طوال اربعة عشر عاماً ، حتى موته .

و « بابا همنفواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشن اخيراً عن حياة همنفواي وكتبه بأسلوب روائي شبيه بأسلوب همنفواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحاراً ، ولم يقتل خطأ وهو يقرب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشن بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنفواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ . .

كتاب ممتع لا يزال يشير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .  
منشورات دار الاداب

التي حافظت على ازيائها الوطنية ويقولون ان الحفاظ على الزي الشعبي بشكل خاص ، والفنون الشعبية بصورة عامة امر من اجله ان يساعد على الحفاظ على السمات القومية وهو شيء مرادف للاستقلال . وعند مناقشة قضية كهذه يجبان نضع في اعتبارنا امورا كثيرة . .

وفي مقدمتها ان الازياء الشعبية ، كما تحدثنا عنها ، جاءت وليدة حاجات وظروف مجتمع زراعي مغلوق وفي وقت كانت القرية فيه وحدة متكاملة وشبه معزولة عن المدينة وعن العالم الخارجي ، وهي ايضا تنسجم مع وجهة النظر الدينية في العثمة وتناسب مسح النظرة التراثية العربية للازياء . وابتداء من سنوات ما بعد الحرب الثانية استجذبت حاجات وظروف الاحتكاك بالقرب ، وقامت المدرسة بدور طلائفي في هذا المجال . وكان لا بد ان يقع الصراع بين الازياء الشعبية والازياء الحديثة . وقد تعرضت الازياء الحديثة لاستفراق واستهجان الناس الكبار في السن والشيوخ والمحافظين ورموا الذين يلبسونها بتهم اتفرنج والروق واتزندقة والابتعاد عن التراث الديني والاصالة العربية . وكان لا بد ان يتقرر مصير هذا الصراع على ضوء حاجات الحياة الجديدة وظروفها الشعبية . وقد كانت ظروف العمل في المصنع والمكتب والمدرسة دوافع مهمة في صانح الازياء الحديثة ، فانزي الشعبي لم يستطع ان يثبت انه زي جدير بالبقاء في الاوساط العملية الجديدة . وحتى في الحقل ، ومع وجود الاساليب الزراعية الحديثة ، كان لا بد من تطعيم الازياء الشعبية لتساير ظروف الحياة الجديدة فهناك ملابس للعمل واخرى لتناسب الجلوس في « المصافة والديوان » .

وتلعب المدرسة دوراً بالغ الأهمية في تطوير الازياء . وبفضل المدرسة شهدت القرية نمساذج القميص والبنطلون « والمريول » والجرايات والملابس انداخلية . وصار انشاب والفتاة يصرن على الازياء الكنسية او على الافل يطمعان ملابسهما بالملابس الجديدة . وصار انشاب يعزفون عن الزواج من انفتاة التي تنبس الازياء الشعبية التقليدية لانهم صاروا يربطون بين الملابس الحديثة وعقلية الفتاة الحديثة ، حتى اذا تزوج الشاب من فتاة تقليدية فانه يطلب منها ان تغير زياها . وفي بعض البيئات ترى ازياء هجينة : فهناك الثوب المبرز الشائع في منطقة القدس ترتديه فتاة تقليدية وترتدي زي الراس المعروف في تلك المنطقة ثم تصبغ وجهها وشفتيها بالاصباغ الحديثة وترتدي حذاء ذا كعب عال وتعمل محفظة نسائية انيقة . . وتستطيع ان تحبس طبيعة ملابسها الداخلية من حاملة النهد التي تدفع صدرها لينبثق من وراء فستان الحبر المبرز !!

واصبح المجتمع يتقبل عمليات التطعيم هذه راضياً او كارهاً وصار شباب القرية يرتدون الملابس الداخلية القصيرة تحت « الديماية » وخلعت الريقية انشال والحزام العريضين اثقيلين واستعاضت عنهما بالحزام الخفيف من انجلد . واصبح من المألوف جداً ان لا يلبس الشباب أي نوع من الازياء المعروفة للرأس .

والواقع ان عملية التقليد هذه للازياء الحديثة دلالة على اعتراف اهل الريف بهزيمتهم في الصراع الدائر مع الازياء الحديثة وهم يتشبثون بطريقة او باخرى بالازياء الحديثة للتظاهر بالفنى والرقي ومسايرة العصر .

ومن الضروري ان نتبين الاسس التي سيصبح عليها انزي فسي المستقبل وكذلك من الضروري ان نعرف المكان الذي يجب ان نقف فيه اثناء عملية التطور الاجتماعي المدبش التي يمر بها الشعب .

وان اقامة متحف للتقاليد الشعبية الفلسطينية تنفيذ في ناحيتين اساسيتين : الحفاظ على تراث الشعب الذي اصبح غربياً في وطنه وابرار ملامح مرحلة التطور التي تجتازها الازياء وسائر الفنون الشعبية والتي على ضوءها يتقرر مصير تراثنا .

وانها لفرصة مناسبة ، هذه الفرصة التي يلمس فيها الانسان العربي كرهه ومقاومته لكل ما هو غربي ، لينظر هذا الانسان لنفسه وزيه لعله يتبين انزي الجديد الذي يختطه للاجيال القادمة على ضوء انزي الشعبي الذي يسير الى الانقراض وعلى هدى التراث العربي .